٣٦

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدرك للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

قراءة الفقيه لحديث الإمام الجواد عليه السلام

سماحة السيد
محمد هاشم آل يحيى

-٢٠٢٥-

قراءة الفقيه لحديث الإمام الجواد: ((المؤمن يحتاج إلى ثلاث...))

يتناول هذا التقرير من محاضرة السيد محمد هاشم آل يحيى في مركز مدرك للتنمية والدراسات الاسلامية ضمن ملتقى الثلاثاء الفكري، بعنوان: «قراءة الفقيه لحديث الإمام الجواد (عليه السلام): المؤمن يحتاج إلى ثلاث».

عرض فيها سماحته الفارق بين الفهم العام للنصوص الدينية وقراءة الفقيه المتعمقة، مبيّناً أن الحديث يحمل أبعاداً فقهية وحكمية تتصل بتربية المؤمن وسلوكه، وأن اختيار الإمام للجملة ((المؤمن يحتاج إلى ثلاث)) يدل على ثبوت هذه الصفات في شخصية المؤمن. كما أوضح أن هذا النمط من البحث يجسّد الوظيفتين الأساسيتين للفقيه: التفريع على الأصول المعطاة، وتصيّد الأصول من الفروع، مؤكدا أهمية التفقّه وتذوّق روح الفقاهة في فهم تراث أهل البيت (عليهم السلام).

قراءة الفقيه لحديث الإمام الجواد: "المؤمن يحتاج إلى ثلاث"

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

إنه لمن السعادة أن يجلس المرء بين من تفرش الملائكة أجنحتها لهم. اللهم أحيِنا ما أحييتنا في هذا المسلك، وأمِتنا ونحن على هذا المسلك، واحشرنا مع محمد وآل محمد على هذا المسلك.

أحبائي، لا بد أن هذا المكان تشرّف بجملة من الفضلاء وذكروا ما عندهم في هذا المسلك، مسلك طلبة العلم، إما بتجاربهم وإما بالموروث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسائر الأئمة. ويحار المرء ماذا يضيف على ما ذكره الفضلاء السابقون الذين جاؤوا على هذه المنصة. ولذلك فكرت في أن أسلك مسلكًا آخر، أرجو أن أوفّق فيه. فأقول: "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي".

هناك حديث مشهور للإمام الجواد (عليه السلام): ((المؤمن يحتاج إلى ثلاث: توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه))[1]. هذا الحديث حديث مشهور عن الإمام الجواد، ويتكرر تناوله من قبل الخطباء على منابر الوعظ والإرشاد، بل إن الناشطين في الثقافة العامة أيضًا يتناولون هذا الحديث. ودعوني أولًا أن أذكر معنى الحديث في الثقافة العامة. هذا في الثقافة العامة متداول، فالمتدينون المثقفون في أوساطنا يطرحون هذا الحديث. وبالمناسبة، هذا الحديث صار له صيت في الفترة الأخيرة؛ لأنه يُحسب على مفردات التنمية، وفي عصرنا موجة ما يسمى بالتنمية. ففي الثقافة العامة يقولون إن هذا الحديث من الإمام الجواد مفاده أن الشيعي الاثني عشري يحتاج في مجمل مشاريعه، سواء أكانت مشاريع اقتصادية، أم مشاريع اجتماعية، أم مشاريع فكرية، يحتاج إلى ثلاثة أمور:

[1] - مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج ٨، ص ٣٢٩،

الأمر الأول: أن يكون هناك واعظ من نفسه، والواعظ هو الإرادة (تعبير عن الإرادة)، يعني عنده إرادة بهذا الأمر.

وقبول ممن ينصحه، والناصح هو من يشير عليه، وبالتالي بالتعبير المعاصر المستشار. فلا بد أن يكون لك مستشار في هذا الأمر الذي تريده، وعندك مستشار، أو تستحصل مستشارًا في هذا المجال.

ثم الأمر الثالث: أن الله يوفق.

وهذا يسوقونه (يفسرونه) كالتالي: عندك مشروع اقتصادي، تريد افتتاح مشروع اقتصادي، أن تكون لديك الإرادة له، وأن تتواصل مع مستشار في مجال المشروع الذي تريد فتحه. هذا حتى يغذيك بالمعلومات ويرشد الخطوات، وتدعو الله أن يوفق. هذه ثلاثة أركان لأي مشروع.

وكذلك المشاريع الاجتماعية: مشروع زواج، أنت لديك الإرادة، ويوجد من يشير عليك فيما يصلح لك وفيما لا يصلح، وأن الله يوفق حتى ينجح هذا المشروع.

هذا (الفهم) في الثقافة العامة.

أقول: لو طلبنا من طالب علم، طالب فقه، عنده حظ من الفقه، أن يبحث هذا الحديث، فما الذي سينتجه؟ أُعيد: لو طلبنا من طالب فقه، وعنده حظ من علم الفقه (طبعًا علم الفقه وأصوله ومقدماته بلا شك) أن يبحث هذا الحديث، فما الذي ينتجه لنا من هذا الحديث؟

الآن جاء طالب الفقه لبحث هذا الحديث. فيما سينتجه هو ما أريد أن أبيّنه، هو ما أريد أن أركّز عليه. أرجو الالتفات.

هذا طالب الفقه جاء في البداية قال: المؤمن. لفظة المؤمن الواردة في روايات أهل البيت، الواردة في السنة، هي على نسق لفظة المؤمن الواردة في القرآن الكريم. هذا الكلام في الفقه وفي التفسير: أن كلام السنة على نسق... كما يقول الإمام الصادق (عليه السلام):

كلامنا على نسق القرآن، على نسق كلام القرآن، فيه ناسخ ومنسوخ وعام وخاص ومطلق ومقيّد ومحكم ومتشابه. وبالتالي، من يطالع كلامنا لا بد أن تكون عنده أدوات تخصصية ليستطيع أن يرجع المتشابه إلى المحكم، ويرجع المطلق إلى المقيد، ويرجع المنسوخ إلى الناسخ وهكذا، مثل القرآن. ولذلك، لفظة المؤمن الواردة في كلام النبي وأهل بيته على نسق المؤمن الواردة في القرآن.

لفظة المؤمن الواردة في القرآن ماذا تعني؟ (والكلام نتكلم الآن نحن فقه)، فقيه يتناول تفسير القرآن. لفظة المؤمن الواردة في القرآن يقولون تعني المسلم وليس الشيعي الاثني عشري؛ لأنه هذا إطلاق لغوي، والمؤمن في القرآن إطلاقها اللغوي هو المسلم. لذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢]، هل يعقل هذا الأمر فقط للشيعة الاثني عشرية أم لجميع المسلمين؟ انه لجميع المسلمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾[٣]. هل يعقل أن التبليغات والأوامر لخصوص الشيعة أم لعموم المسلمين؟ لعموم المسلمين. ولذلك يقولون: إذا أُريد بالمؤمن الخاص—أي ليس المسلم إنما الخاص—لا بد أن تُنصب قرينة. ولذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٤].

[٢] -التحريم: ٦
[٣] -الحجرات: ١١
[٤] -الحجرات: ١٤

يقول: هـذه قرينـة. "آمنـا" و"يؤمن" هـذه يراد بهـا المعنى الخـاص الـذي يؤمن بالولاية، المســلم الذي يؤمن بالولاية. وعليه، نرجع الآن، نحن طالب الفقه، الفقيه هو الذي يبحث في الحديث، قال: هذا الخطاب للمسـلم وليس للشـيعي الاثني عشـري. أرأيتم الفرق بين القراءة العامة عن قراءة الفقيه للحديث؟ هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: "يحتاج" (لفظة يحتاج) معناها معروف، لكن هل هناك تحديد لمتعلق الحاجة في الحديث؟ لا يوجد تحديد لمتعلق الحاجة؛ لأنه يحتاج المرء إلى كذا في كذا، يحتاج إلى المال في المشـروع الاقتصـادي، يحتاج إلى المبنى في المشـروع الفلاني وهكذا. الإمام لم يحدد في أي شيء حاجة المؤمن، لكن ما يحتاجه ذكره. قال: يحتاج ثلاثة: توفيق، واعظ، قبول ممن ينصـحه. لكن في أي شيء؟ فالفقيه ماذا يقول؟ هذا إطلاق. وبالتالي، فهذا الحديث يكشـف عن حاجة المؤمن مطلقًا، في أموره الاقتصـادية، أو في أموره الاجتماعية، أو في أموره الفكرية، أو في أموره الأخرى، بل إن الحاجة مطلقة في أمور معاشه أو في أمور معاده. هذا الحديث توسع وفق رؤية الفقيه. كل هذا ما ذكر لم يقيَّد، فبالنتيجة الحاجة مطلقة في أي مشـروع من المشـاريع، في أمور المعاد أم في أمور المعاش؟ ولذلك هذا يصـدق على أمور الدين والتدين. وبالتالي يقول له: أيها المؤمن، إذا أردت أن تتدين (هذه أمور المعاد)، عليك أن يكون لك واعظ من نفسك، وأن يكون لك ناصح يدلك، وأن يكون لك من الله توفيق. وكذلك في أمور المعاش. هذا في الحقيقة أيضًـا بحث ينفتح في مجال الإطلاق.

أنا أبقى أستفيد من الحديث على نحو التفقّه إلى أن أرى في العيون إذعانًا للفقه.

هذا الشيء الأول: المؤمن، قدر من البحث، أخرجنا منه المسلم. بحث في الاحتياج المطلق، أخرجنا منه بحث.

أضيف بحثًا ثالثًا من قبل الفقيه: عموم أحاديث السنة تُقسم إلى صنفين:

١- صنف يؤسس حقائق شرعية، من قبيل: ((لا صلاة لجار المسجد إلا في مسجده))[٥]. هذا الآن يؤسس حقيقة شرعية. صلاة الفجر ركعتان. الصلاة مُركّب يبدأ بالتكبيرة ويختتم بالتسليمة. هذه الأحاديث إنما هي تأسيس لحقائق شرعية. قبل الحديث لا يوجد مركب الصلاة وتفاصيله بأجزائه وبشرائطه، بل أُسس من قبل الأحاديث. قبل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٦]، لم تكن هناك فريضة الصوم قبل هذه الآية، وفي الآية تم تأسيسها. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أحاديثه المتعددة بعد نزول هذه الآية: الصوم يبدأ بطلوع الفجر وينتهي بالغروب، هذا تأسيس لحقيقة شرعية، وهي مقدار الصوم وإلى آخره.

٢. صنف آخر من الأحاديث لا علاقة لها بالحقائق الشرعية: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك"، ((انْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ، فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ))[٧]. هذا لا علاقة له، ليس حقائق شرعية، لا هو صلاة ولا صوم ولا أي فرع من فروع الدين ولا هو بالمعاملات بمختلف أبوابها. هذا الحديث الذي نحن بصدده: ((المؤمن يحتاج إلى ثلاث: توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه)) لا يدخل بالعبادات، لا يدخل بالمعاملات.

هذه في الحقيقة، هذه الأحاديث، وهي نسبة ليست قليلة في أحاديث النبي الأكرم والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، هذه في الحقيقة أحاديث تحكي واقعًا، إما علميًّا من إنتاج علوم أخرى، وإما عقلائيًّا من إنتاج العقلاء. ((انْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ، فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ))، "لا تؤجل عمل اليوم إلى غد"، هذه تحكي عن واقع أنتجه العقلاء عبر تجاربهم. أو تحكي عن علم، مجموعة من الأحاديث تتكلم في مجال طب الإنسان، هذه تتكلم عن واقع ينتجه علم الطب. لكن النبي الأكرم له غرض، وفي الحقيقة الآن بلا شك نتساءل أنه ما علاقة النبي الأكرم والأئمة في أن يذكروا أحاديث هي من إنتاج إما علم آخر أو

[٥] - وسائل الشيعة الشيخ حرّ العاملي ج: ٥ ص: ١٩٤
[٦] - [البقرة: ١٨٣]
[٧] - عيون الحكم والمواعظ: ٨٩

إنتاج العقلاء؟ ما الغرض؟ هذه من وظائف النبي الأكرم وتنسحب إلى الإمام. وظائف النبي الأكرم أربعة كما تذكرها الآيات المباركة، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٨].

وظائف النبي الأكرم:

١- تلاوة الآية، وهي وظيفة نبوية مختصة بالنبّوة فلا تكون للإمام.

٢- التزكية، هذه التي يقولون بالتفسير هي التربية.

٣- ويعلمهم الكتاب، هذه التفاصيل التي هي الفقه والعقائد. الكتاب يحتوي عقائد وفقه وأخلاق.

٤- ويعلمهم الحكمة. الحكمة لا علاقة لها بالكتاب، ليست من أمور الدين. هذه الحكمة، ما هي على اختلاف التعاريف؟ هي في الحقيقة مسيرة العقلاء. والاهتمام بالحكمة إلى حد أن لقمان ليس نبيًا ولكن هناك سورة باسمه، كما لنوح سورة باسمه، وكما لنبينا سورة باسمه، حتى يعرف المرء أهمية الحكمة، بل إن جُعل تعليم الحكمة وظيفة للنبي الأكرم إلى جنب تعليم الكتاب، حتى يعرف المرء ما أهمية الحكمة في الحياة.

فالأئمة لهم ثلاث وظائف عندهم؛ لأن وظيفة تلاوة الآيات تُرفع (تُزال)، هذه وظيفة نبوية، فيكون التزكية وتعليم الكتاب وتعليم الحكمة. وهذه موجودة في أحاديث أمير المؤمنين وسائر الأئمة.

[٨] - [الجمعة: ٢].

أرجع أقول: هذه جملة من الأحاديث، مثل: ((انْتَهِزُوا فُرَصَ الْخَيْرِ، فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ))، "لا تؤجل عمل اليوم إلى غد"، "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك"، هذه تندرج في ضمن تعليم الحكمة.

الآن هذا كله هو كلام الفقيه. الآن الأحاديث التي بالصنف الأول، التي تؤسس لحقائق شرعية، هذه المقصود بها المنتمي للشرع، بتعبير آخر المؤمن. غير المؤمن هذا ليس مخاطبًا بذلك. الذي ليس مؤمنًا، لا معنى في أن يُخاطب بالصلاة وبأدائها وبتفاصيلها، أو يُخاطب بالصوم وأدائه وتفاصيله وهكذا.

ولكن الصنف الثاني من الأحاديث التي تندرج تحت الحكمة بمختلف تفاصيلها، هذه لا خصوصية في الاستفادة منها للمتدين أو غير المتدين، للمؤمن أو غير المؤمن، المسلم أو غير المسلم. وبالمناسبة، هناك أحاديث لم يُذكر فيها المؤمن أو المسلم: ((خير الناس من نفع الناس))[٩]. وحتى في الآيات الكريمة توجد هناك خطابات للإنسان أو للناس من دون أن تُقيّد بالإيمان أو بالانتماء.

أرجع الآن، الفقيه يقول: هذا الحديث من الصنف الثاني وليس من الصنف الأول. ليس فيه تأسيس حقائق شرعية، إنما هو من صنف تعليم الحكمة. وبالتالي، هذا يصلح لكل إنسان، سواء كان مؤمنًا أم ليس بمؤمن، سواء كان مسلمًا أم ليس بمسلم. وبالتالي، صحيح بدأ الخطاب "المؤمن يحتاج"، لكن محتوى الحديث ومضمون الحديث ينفع حتى غير المؤمن.

[٩] - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله): ((خَيْرُ النَّاسِ مَنِ انْتَفَعَ بِهِ النَّاسُ، وشَرُّ النَّاسِ مَنْ تَأَذَّى بِهِ النَّاسُ، وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ مَنْ أَكْرَمَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ، وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ)). مستدرك وسائل الشيعة: ١٢ / ٧٧

يبقى الكلام: إذاً لفظة "المؤمن" لماذا أتى بها الإمام؟ الإمام في الحقيقة يقول: "نحن معنيون بأن نوجه خطابنا للمؤمنين"، بل نحن نريد أن نقول: "هناك عندنا عناية خاصة بالمؤمنين". وظيفتنا إزاء المؤمنين هي وظيفة البناء والتربية والعناية والمسؤولية. الأئمة وظيفتهم ومسؤوليتهم عن المؤمنين في أمور معاشهم وأمور معادهم. أما خارج دائرة الإيمان، يقول: "نحن مسؤوليتنا أن نكون أسوة لهم، لسنا مسؤولين" (هذه يذكرونها في وظائف الإمام).

بالنتيجة، هذا الحديث صحيح صدر بلفظ المؤمن، ولكن هو ينفع لكل الناس، للمؤمن وغير المؤمن، وبالتالي يمكن أن يُطرح مع غير المؤمنين. هذا بحث ثالث.

بحث رابع: الآن هذا الحديث من حيث المضمون، لو أن الإمام قال: ((يحتاج المؤمن إلى ثلاث: توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه))، هل المضمون يختلف أم أن المضمون واحد؟ المضمون نفسه. لو أن الإمام عدل عن الجملة

الاسمية، أي جعله على نحو الجملة الاسمية: "المؤمن" مبتدأ، "يحتاج إلى ثلاث" خبر. لو عدل من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية وقال: "يحتاج المؤمن إلى ثلاث: توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه"، هل يختلف المضمون؟ المضمون نفسه.

عند الشهيد الثاني، في أدبيات فن الإفتاء والاستفتاء، هناك يعلّمون، يقولون: "الجملة الفعلية تُقدّم في التقدير على الجملة الاسمية". ولذلك في تفسير قوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم"، هذه في بدايات السور المباركة، يقولون: هذه قابلة لأن تُقدّر

على أن تكون خبرًا لمبتدأ تقديره: "ابتدائي" (يعني جملة اسمية)، ويمكن أن تُقدّر على نحو: "أبتدئ باسم بسم الله الرحمن الرحيم". ولما كان تقدير الفعل مقدَّمًا على تقدير الاسم، يكون هذا هو التقدير. فـ "بسم الله الرحمن الرحيم" الأفضل أن تُقدّر "أبتدئ". الجملة الفعلية مقدّمة على الجملة الاسمية عندما تكون مخيّرًا بين أن تلقي مضمونك بجملة فعلية أو بجملة اسمية. ولا فرق بينهما.

طيب، الآن في الحقيقة لو تلاحظون، لو خلينا وطبعنا، وكان الإمام يوجه لنا نصيحة، ألا تجدون أنه من الأوقع في النفس أن يقول: "يحتاج المؤمن إلى ثلاث"؟ يكون وقعها في النفس أكثر من أن يقول: "المؤمن يحتاج إلى ثلاث"؟ عندما يجعلها على شكل جملة فعلية، يكون أوقع بكثير.

الفقيه سوف يقول: لماذا عدل الإمام من الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية؟ لماذا؟ هذا بحث يُبحث، وجزء من هذه المباحث في الأصول، في فلسفة اللغة، في معاني النحو. يقولون: هناك فرق بين الجملة الاسمية وبين الجملة الفعلية. (نجح الطالب)، (الطالب نجح). المضمون واحد، لكن هدف الكلام يختلف، هدف المتكلم يختلف.

الفقيه يقول: إذا كنا نريد الحديث عن الله جل وعلا، عن الله نفسه نريد نتحدث عنه، فماذا نقول؟ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[١٠]، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[١٢] يجعله مبتدأ ويتكلم عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[١٣] هذا إذا أردنا الكلام عن الله.

[١٠] -البقرة: ٢٥٥
[١١] -] النور: ٣٥]
[١٢] - [الإخلاص: ١-٢].
[١٣] - [الزمر: ٥٣].

أما إذا أردنا الكلام عن أفعال الله، فماذا نقول؟ ﴿ يهدي الله من يشاء﴾، ﴿يغفر الله لمن يشاء﴾. ولذلك عندما نريد الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ (فعل) ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا﴾ [١٤]. إذا أردنا أن نتكلم عن المؤمنين وقيم المؤمنين ومواصفات المؤمنين، نقول: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [١٥] أما إذا حديثنا مركز على أفعال المؤمنين، يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [١٦] وهذا الأمر هو سر الفرق بين الجملة الاسمية والجملة الفعلية. هذه كانت شواهد من القرآن.

تعالوا إلى شواهد عرفية. من الشواهد العرفية: أنا أسوق بعض الأمثلة. لو أنه في أحد البيوت المجاورة مثلًا لداري حدث فيه حريق، واعتلى الدخان. بعض الأشخاص، بعض المعارف، من الأقرباء، من الأصدقاء، رأى الدخان من مكان بعيد، يظن أنه قريب داري، يتصل، يرن الهاتف، فيسأل يقول: "هل هذا الحريق عندكم؟" أنا ماذا أقول؟ أقول: "لا، هذه احترقت دار جيراننا"، أو: "احترقت دار زيد" (وهو أصلًا لا يعرف زيدًا)، لكن هو يسأل عن الحريق: هل هو عندي أم عنده في مكان آخر؟ أقول له: "احترقت دار زيد".

نفس الحدث. الحريق صار في دار لشخص صديق اسمه زيد. فاتصل أخوه به قال: "هذا الدخان عندك؟ لأني لا أستطيع الوصول إليه (لا أحصله)". فكيف أنا أجيب؟ هو لا يسأل عن الحريق، هو يسأل عن دار أخيه. فالمناسب ماذا أقول؟: "للأسف، دار أخيك احترقت". لاحظتم الفرق الكبير؟

شاهد عرفي آخر: عندما تصير عندي مماحكة مع أستاذ ابني بالمدرسة. إذا كان السؤال طبيعيًّا، والأستاذ يستخبر فقط، يقول لي: "ابنك ينجح إن شاء الله في نهاية

---

[١٤] -] البقرة: ٢٨٦]
[١٥] -[التوبة: ٧١].
[١٦] -[الحشر: ١٠].

السنة؟" وأنا أقول له: "ينجح ابني". لكن انظروا، إذا صار شد بيني وبين الأستاذ، والأستاذ بدأ يعرّض: "ابنك ترى لا ينجح، ابنك ضعيف، ابنك كذا". نحن في هذا الوضع، عندما يصير عندنا شد، ماذا أقول له أنا؟ "ابني ينجح، لا تبقى تُلِحّ. ابني ينجح". انظروا ما استعملت: "ينجح ابني". لماذا؟ لأن الحديث من الأستاذ بيني وبينه يدور حول ابني، لا حول نجاحه. فلذلك لا بد أن تكون الجملة التي أستخدمها أيضًا تركز على الابن، فاستعمل الجملة الاسمية: "ابني ينجح، لا تبقى تُلِحّ". أفهمتم؟ هذه نقطة غاية في الأهمية: استخدام الجملة الاسمية أم الجملة الفعلية إنما تبعًا لغرض المتكلم مع المخاطب.

أرجع إلى حديث الإمام. الإمام كان ممكن يقول: ((يحتاج المؤمن إلى ثلاث))، لكن الإمام ماذا قال؟ "المؤمن يحتاج إلى ثلاث". الإمام يريد يقول شيئًا، يقول: "تلك الأمور الثلاثة بلا شك يحتاجها كل إنسان". لكن نحن تركيزنا على المؤمن. نحن (الأئمة)، إذا كان هناك كنوز ومعارف لها أهمية بالحياة وتضمن سعادة الدارين، فالمؤمن أولى بها. لذلك لا نقول: "يحتاج المؤمن"، بل نقول: "المؤمن يحتاج إلى ثلاث".

حتى يكون هو التركيز بالخطاب بيني وبينه، وبالتالي صار المعنى آخر.

الآن أسلوب الجملة الاسمية يقولون هو أسلوب التعريف، لا مثل أسلوب الجملة الفعلية؛ لأنه أنت إذا تريد تُعرّف، لا تُعرّف بالجملة الفعلية، بِمَ تُعرّف؟ (الإنسان حيوان ناطق). تُعرّف بأسلوب الجملة الاسمية. وكأن الإمام (هذا الفقيه الآن يمارس فقه الحديث، هذا الذي أتكلم به هو فقه الحديث)، كأن الإمام يريد يقول: أُعرّف المؤمن هو الذي يحتاج إلى ثلاث في حياته لضمان سعادة الدارين: توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه.

أصلًا اختلف فقه الحديث عن مدى آخر في الحقيقة، وأصبح عالمًا آخر. هذا الحديث، تقديم المؤمن، مع أن السليقة والفطرة كان يُفترض—أي الأقرب للنفس—أن يقول: "يحتاج المؤمن"، لكن تبيّن أن الإمام ليس بصدد أن يبيّن حاجات المؤمن، بقدر ما

يريد أن يبيّن، يقول: "المؤمن هويته أن يكون دائمًا عنده هذه الأمور الثلاثة، يجعلها دائمًا ركائزه في مختلف مشاريعه لأمور معاشه ولأمور معاده: توفيق من الله، وواعظ من نفسه، وقبول ممن ينصحه".

الآن نحن نستطيع نستمر بهذا (البحث في) فقه الحديث إلى ما شاء الله، بل ليس جلسة واحدة، إلى جلسات. "الواعظ من نفسه" توجد فيها بحوث. "توفيق من الله" توجد فيها بحوث. "قبول ممن ينصحه" توجد فيها بحوث.

أين شاهدي في الكلام؟ شاهدي في الكلام معكم أين هو أيها الإخوة؟ فرق المعنى الذي ذكرته في بداية حديثي، الذي كان عبارة عن سطرين ثلاثة: الإمام يوجه الناس وخصوصًا المؤمنين بأن تعتمد في مجمل مشاريعك ثلاث ركائز: توفيق من الله، وإرادة، ومستشار. وبين الفهم الآخر في فقه الحديث. هذا من الذي يستخرجه؟ يستخرجه من رُزِق حظًا في الفقه. شاهدي: نحن في هذا الصراط، في صراط علم الفقه.

أيها الإخوة، ما استطعتم أن تنالوا حظًا وافرًا من علم الفقه، فإياكم أن تفرطوا بأي جزء منه؛ لأن ما يستحصل بالفقه ما لا يستحصل من أي عنوان آخر. كلام الأئمة هذا كنزه، كنوز كلمات الأئمة (طبعًا القرآن بعد حاصل وتحصيل). هذه الكنوز بالثقافة العامة، بالذهنية العامة، تستفيد منها ما لا يتجاوز الـ ٥٪. ومن عنده حظ من الفقه، كلما زاد حظه كلما ازدادت نسبة فهمه واستفادته من الأحاديث. هذا المسلك الذي نحن فيه مسلك كريم عند أهل البيت، مسلك شريف عند الله.

طبعًا الأحاديث تعرفونها بلا شك التي تؤسس لهذا المسلك وتبيّن فضل طالب العلم. لكن في الواقع العملي، هذه تجربة في هذا الحديث أجريتها أمامكم: فرق من عنده حظ من الفقه عن غيره. والتجربة كما يقولون أكبر برهان، وبالتالي لا يحتاج بعد هذا إلى بيان.

وبالنتيجة، فأنا أذكر نفسي- وأذكركم في أننا بهذا الصراط وبهذا السبيل، سبيل التفقه. من يتمكن من تحصيل الملكة، فهي الأمنية التي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم. ومن لا يتمكن من تحصيل الملكة، على الأقل يتذوق الفقاهة. تذوق الفقاهة مهم. ولذلك وارد في كلمات الأئمة صلوات الله عليهم، نتصيّد منها. وهذا ما ذكره وركز عليه سماحة سيدنا المرجع السيد السيستاني (أطال الله بقاءه) في بحثه الذي يُعد بحثًا متميزًا في أصوله في اختلاف تعارض الأحاديث/تعارض الأخبار واختلاف الحديث. هذا الذي هو يعتبر (أحدث فكر أصولي في مجال تعارض الأحاديث)، هناك ركز على هذا الأمر. قال: الذي نفهمه من كلمات الأئمة، الإمام الباقر والإمام الصادق يركزون... نفهم منها أن وظيفة الفقيه وظيفتان:

١. الوظيفة الأولى التي ذكرها الإمام: ((إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا))[١٧]. وهذه الوظيفة بسيطة أيها الإخوة، هذه الوظيفة أدنى درجات الاجتهاد. الذي عنده ذوق يستطيع بالممارسة يتعلم. أنا لا أفرّع على رأيي، بل أفرّع على رأي السيد الخوئي (الله يقدس نفسه). ولذلك كان هناك أشخاص معروفون يُتقنون أصول السيد الخوئي، فيفرّعون عليها ويجيبون مسائل.

٢. وهناك وظيفة أخرى للفقيه، هي الإمام يقول: "نلقي الفروع وعليكم تصيُّد الأصول". أي أن تستخرج أنت الكبريات وتستخرج القواعد من الجزئيات. وهذا الفن الكبير. الآن نحن إذا لم نتمكن من الثانية، دعونا نتمكن من الأولى. فلنتقن الأصول (وأقصد بالأصول يعني القواعد بمختلف أشكالها: أصول فقه، رجال، وغيره وإلى آخره، وحديث)، حتى على الأقل نستطيع ان نفرّع. هذا الحديث إذا نأخذه تحت المجهر، نبدأ نفرّع من عنده، نخرج بحثا في "المؤمن"، نخرج بحثا في "يحتاج"، نخرج بحثا في "واعظ"، وإلى آخره. وهذه نقطة غاية في الأهمية أيها الإخوة. أرجو لكم أن الله يوفقنا جميعا في هذا المسلك، وأن يُغدق علينا من بركاته ورحمته؛ لننهل ما نتمكن أن ننهل من تراث أهل

[١٧] - وسائل الشيعة الشيخ حرّ العاملي ج: ١٨ ص: ٤١

البيت، وأن يعيننا على تحصـيل هذه الملكة، أو على الأقل تذوقها. أسـتغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

السيد محمد هاشم آل يحيى